العنوان:	المدخل الى شعرية التشبيه : نقض لحسية الشعر الجاهلي
المصدر:	علامات في النقد الأدبي - النادي الأدبي الثقافي بجدة - السعودية
المؤلف الرئيسي:	القرشي، عالي بن سرحان عمر
المجلد/العدد:	مج 1, ج 2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1991
الشهر:	ديسمبر
الصفحات:	165 - 182
رقم MD:	204121
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	ACI, AraBase
مواضيع:	الشعر الجاهلي، البلاغة العربية، اللغة العربية، الشعر العربي، الخصائص الفنية، النقد الأدبي، نقد الشعر، التشبيه، الإستعارة، البلاغيون العرب، الظواهر البلاغية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/204121

المدخل إلى شعرية التشبيه

نقض لحسية الشعر الجاهلي

الدكتور عالي سرحان القرشي



ـ ١ ـ

● تشكيلات الإنسان للأشياء في اللغة من الأمور التي لا ينقطع فيها النظر حيث لا ينوب في التفكير فيها جماعة عن جماعة ، ولا يغني في التماس الآفاق في جنباتها جيل عن جيل ، إذ إنها لا تؤول إلى عملية آلية يستحيل معها النبض الإنساني إلى نمط ، والمعرفة الحية إلى موات .

وإذا كانت الأشياء لها حضورها المتجدد في الفكر الإنساني ، ولها علاقاتها المتباينة بتباين الروح الإنسانية ، والمتسقة مع بعضها بفعل اتساق الجماعات الإنسانية من خلال الوعي الجمعي ، فإن الوقوف المتأمل على تلك الطبائع سيفضي إلى معرفة عمادها الاعتداد بفاعلية الإنسان ، وعدم الإذعان لنمطية يدمغ بها تفكيره ، فتصير مقتنياته اللغوية كالقوالب الصناعية التي تنمط فيها الأشياء المادية .

من هنا نجد أن إعادة النظر في مسألة «التشبيه» أمر مشروع ، على كثرة ما قيل في ذلك عبر الأجيال المختلفة ، لأنه أمر يتجلى فيه المحاورة المستمرة للإنسان مع الأشياء ، ومحاولة بناء علاقاتها بلغته التي يحقق بها أبعد وأعمق أثر له .

إن قرن الشيء إلى الشيء عملية يستحضر فيها الفنان المبدع رؤية للشيء يبثها إلى المتلقي الذي يلتقي معه في إدراك هذه الأبعاد ، إن لم تختلف بها عصور الثقافة أو سذاجة التلقي .

ولاشك أن تأمل هذا القران القائم في فعل التشبيه يفضي إلى إعادة وعي بالجهد الفني القديم ، حين يحرر ذلك الجهد من إسار الآلية الذي طبع هذا الجهد بميسمه .

وتحديداً لميدان النظر سنقصر ذلك على «لغة الشعر» ، حيث إنها لغة الإنسان ، الحافلة بالمضمون الذي يُنْفِذُه عبر الأشياء ، فيبعد بالتشبيه عن ذلك القالب الذي حصر فيه ، والذي قد يصدق - إلى حد ما - في لغة النثر .

- ٢ -

لعل وظائف «التشبيه» التي عُرفت له في الدرس العربي تؤول إلى الوضوح .

ويبدو أن التشبيه يلج إشكالية طلب الوضوح من باب إشكالية اللغة ذاتها ، إذ اللغة وسيلة المعرفة واستنطاق حجب الأشياء ، ومهما كانت الوسيلة فإنها قاصرة عن النفاذ إلى عمق الشيء ، فتبقى بين الشيء وكشفه مسافة كبيرة ، تبحر فيها أشواق الإنسان نحو اكتشاف الوجود ، ويتجسد ذلك الفعل في هذه المقاربة اللغوية للشيء ، التي لا تجد أحيانا أمامها إلا الشيء تعبر به عن الشيء .

ولقد كان ذلك الشوق عملية ذات حدين ، تبحر بالمبدع إلى آفاق بعيدة بحثاً عن المعرفة ، ورغبة في الكشف والنفاذ إلى العالم ، وتقنع المتلقي أحيانا باليسير الذي يظهر في سطح هذه العلاقة بين المشبه والمشبه به ، فيظن أنه عرف لشدة تشوقه وعدم رغبته في بذل الجهد ، فيرضى بهذا الظاهر الذي يحجب عنه الكثير مما يختزن داخل هذه العملية اللغوية .

فالمشابهة رحلة نحو اكتشاف الشيء ، وليست هي الصورة الواضحة للشيء ، إذ إنها تعتمد على القران الذي يجمع المشاعر المتباينة في اكتناه الشبه بين الأشياء ، فحين نقول : «هذه الحسناء شمس» ، فإن هذا التعبير رحلة نحو الكشف عن الإحساس الإنساني بهذه المرأة ، وتجسيد للشعور نحو سحر هذا الجمال الأنثوي الآسر ، وقد كان المشبه به «الشمس» اختياراً من الاختيارات المعبرة عن هذا الاحساس في هذا التعبير ، وفي هذه اللحظة ، وحين أضحى هذا الاختيار قائما كان تحرك الإحساس نحو «المشبه» يسير في أفق «المشبه به» : الشمس .

ولهذا فالفعل الإنساني في هذه العملية اللغوية ، يكمن في هذه الرحلة بين الطرفين ، وفي الإيحاءات التي تبعثها هذه العلاقة ، لأن الجهد تجلى في المواءمة

بين الطرفين منذ أن كان ذلك هاجسا إلى أن أصبح متعيناً ، فيصبح المتعين موحيا ، وليس مُحدداً ، لأنه عملية اقتناص للإحساس ، وجماع للمشاعر المتباينة ، وليس عملية تقرير .

وإذا أحسنا تصور هذا الأمر ، فإن ذلك يؤدي بنا إلى تقدير شعرية التشبيه ، لأن الرحلة بين المشبه والمشبه به ليست مقايسة آلية ، وإنما هي رحلة إنسانية يسخر لها الإنسان أعزّ ما وهبه الله من الطاقات المبدعة ، طاقة اللغة وطاقة الفكر ، فيسبح في خياله الذي يصطحب معه الكلمات التي تعينه على رسم الحدود والأبعاد ، فيقرنها بالأشياء التي تستدني له المجهول إلى أمد ، وتقيم له شيئًا يتمثل به مشاعره ورؤاه نحو هذا الشيء الذي حضر في وجوده ، ورحل معه في عالم اللغة والفكر ، ليضع له منتهى يوحي بهذا الفعل الإنساني .

ولاشك أن المقايسة الآلية هي التي ترخي السدف على جمال هذا الفعل الإنساني ، فتطفىء الجذوة الإنسانية التي شحنت بها اللغة في التركيب الشعري للتشبيه .

ـ ٣ ـ

وإذا كنا خارج الشعر نرى التشبيه يسهم في تقريب إدراكنا للأشياء وإيضاحها ، فإن استعجال هذه المعرفة التي يطلبها الانسان بشغف وشوق لا ينبغي له أن يتعجل ذلك ، وأن يطوي به جهد الانسان الشعري في رداء تلك العلاقة التوضيحية والشكلية التي يتطلبها التقرير والتوضيح . فقد يكون الكلام ذا صبغة توضيحية وإيصالية فيعتمد هذه العلاقة في التشبيه ، ويطوي ماعداها لأنه يريد التركيز في هذه الناحية الإفهامية .

وهذا الأمر هو ما تنطبق عليه جل الوظائف والجهات التي حددها الدرس النقدي والبلاغي للتشبيه ، في تراثنا العربي ، فهذا أبو هلال العسكري يجعل من وظائف التشبيه :

١ ـ إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة .

٢ ـ إخراج مالم تجربه العادة إلى ماجرت به العادة .

٣ ـ إخراج مالا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها .

٤ ـ إخراج ما لاقوة له في الصفة إلى ما له قوة فيها .

ثم قال بعد ذلك «والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ، ويكسبه تأكيدا»[١] وأما جهات التشبيه عنده فهي على وجوه منها :

تشبيه الشيء بالشيء صورة ، وتشبيه الشيء بالشيء لونا وحسنا ، وتشبيه الشيء بالشيء حركة ، وتشبيه الشيء بالشيء معنى .[٢]

ولا يبعد غيره من الدارسين العرب عن هذه العلاقة وتفصيلاتها ، وإن كان بعضهم قد أضاء تلك التفصيلات ببعض ما يكتنزه التشبيه من روح شعري ، بان لهم من خلال التوغل في النصوص الشعرية .

ومع التسليم بأن مطلب الوضوح قد يكون هدفا لغرض التشبيه من الشعر ، فإن الرحلة بين المشبه والمشبه به كلما اختصرت جهدها في هذه الوظيفة أو ما اتصل بها من التقريب والتوكيد ، كان ذلك معلناً عن شح ونضوب لرواد العملية الشعرية .

ولو عدنا نستجلي تقدير شعرية التشبيه في الذائقة العربية ، لوجدناها تبتدىء بملاحظة كثرة التشبيه في الكلام العربي شعراً ونثراً إلى الحد الذي جعل المبرد يقول «حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد»[٣] .

وتدل كثرة إقامة المشابهة بين «الأشياء في كلام العرب ، على أن العربي يدقق في ملاحظته للأشياء ، ويشبع تأمله بها ، ويصبغ بها ذاته التي تنقلها من واقعها المحسوس إلى الأفق الشعري الذي يحركها من حدود الواقع إلى امتداد الشعر وخصبه ، فيغادر الشيء إلى واقعه المادي ، ويقترن إلى جوار الأشياء الأخرى ، ويسبح في دلالات الكون الشعري عندما تصطبغ بأفكار الشاعر ومشاعره ، ومايحملها من روح متجددة تظل قادرة على صنع المشابهة المتجددة .

وقد يكون وعي الشاعر العربي بذلك هو الذي يدعوه إلى اختزال عواطفه

---

(١) العسكري (أبو هلال الحسن بن عبدالله) : الصناعتين : ٢٤٩ تحقيق : علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل ابراهيم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر .

(٢) السابق : ٢٥١ ـ ٢٥٤ .

(٣) المبرد (محمد بن يزيد) : الكامل في اللغة والأدب : ٢ / ٧٩ نشر مكتبة المعارف ، بيروت .

ومشاعـره النفسية في هذه الحسيات التي تتعدد أطرافها ، وتتحد أبعادها في النسق الشعري ، حاملة من العواطف والمشاعر المعقدة نحو الأشياء ما يدركه متلقو هذا الشعر ، الذين لم يكونوا يصغون للشاعر ويبجلونه ، ويخلعون عليه الهبات ، ويتقون كلمته ، لأنهم يتلقون منه معرفة بأحـوال هذه الأشيـاء وصفاتها ـ وهم يرونها صباحا ومساء ـ فحسب ، وإنما كانوا يتوقون إلى الالتقاء معه عبر هذا الروح الشعري الذي خلعه على الأشياء ، وأدركوه من خلال الدلالة الكامنة خلف العمل الشعري ، الذي تلتقي به عـوالم الحياة التي يشهدونها لتحمل رؤية الشاعر التي يجسدها الفن ، متعالية عن عالم الضرورة تعاليا يبتدىء من الواقع ويعود إليه بالرؤية المستبصرة المنطلقة من فطنة الشاعر وقوة تيقظه . ولذا فإن الشاعر العربي ـ وإن كان ـ غالبا (يركز على الأبعاد والمظهر الحسي والفيزيائي والألوان والحجوم ، والمدركات الحسية في عناصر الصورة الشعرية)[٤] ـ كما يقول الدكتور / كمال أبو ديب ـ فإن ذلك لا يستدعي ما ارتآه ـ (أبو ديب) ـ من أن الشاعر (لا يولي اهتماما كبيرا للانفعالات والأبعاد النفسية التي تثيرها هذه العناصر سواء بشكل مباشر أو عن طريق التداعي والترابطات الشعورية)[٥] لأن هذه الأبعاد تحمل وراءها حسًا شعوريا كامنا ومختزلاً فيها ، وتعمل في تلاقيها ونسقها الشعري على تحريك العـواطف والمشاعر وتيقظ الرؤية والفكر .

ـ ٤ ـ

ولبحث الشعرية في المشابهة نبدأ بما هو ماثل أمامنا في العملية الشعرية ، وهو سلك الأشياء في نسق على النحو الذي يلحظه عبدالقاهر الجرجاني حين يقول : (وإنها لصنعة تستدعي جودة القريحة والحذق ، الذي يلطف ويرق ، في أن يجمع أعناق المتنافرات المتباينات في ربقة ، ويعقد بين الأجنبيات معاقد نسب

(٤) كمال أبو ديب : جدلية الخفاء والتجلي : ٣٢ الطبعة الاولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٩ .
(٥) السابق : ٣٢ .

وشبكة ،[٦] حيث يتم في هذا النسق تماسك يقيمه الشاعر بين الأشياء من خلال التماسك اللغوي الذي يفرضه عليها ، فتتم بذلك عملية تحريك للأشياء ، لكي تؤدي داخل الشعر مالا يتم خارجه .

وتستدعي عملية التحريك هذه عدم الاعتداد بثبات المطابقة بين الدال والمدلول . أي بين الكلمة التي تشغل أحد طرفي هذه المشابهة ، وما تشير إليه خارجها ، إذ إن هذه الدلالة دلالة متحركة بفعل حيوية الفعل اللغوي ، وهو الأمر الذي رد به الإمام ابن تيمية ومن سلك رأيه على الذين يعتدون بالمواضعة اللغوية حين أفصح لهم أنه (لايمكن أحد أن ينقل عن العرب ، ولا عن أمة من الأمم ، أنه اجتمع جماعة فوضعوا هذه الأسماء الموجودة في اللغة ثم استعملوها بعد الوضع ، وإنما المعروف المنقول بالتواتر استعمال هذه الألفاظ فيما عنوه بها من المعاني)[٧] وحين جزم دون تشكك أن المعلوم هو الاستعمال .[٨] وهو الأمر الذي جعل ابن الأثير يلحظ أن الألفاظ (إذا صارت مركبة فإن لتركيبها حكما آخر ، وذاك أنه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع أن هذه الألفاظ ليست تلك التي كانت مفردة)[٩] .

ومن ثم يكون اللفظ طاقة تعبيرية كامنة يشعل جذوتها الاستعمال ، ويوجه مقاصدها إلى هدفه ، وفي الشعر حيث يكون التركيز على الفعل اللغوي الماثل فيه ، تكون حيوية إذكاء هذه الجذوة أشد نشاطا ، وأبعد عن أن يؤخذ اللفظ مأخذ الأمارة والعلامة فيأخذ اللفظ قيمته الخاصة ووزنه من (كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة ، وليست مجرد بديل عن الشيء والمسمى ولا كانبثاق للانفعال)[١٠] .

(٦) الجرجاني (عبدالقاهر) : أسرار البلاغة ١ /٢٧٥ شرح وتحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي ، الطبعة الثانية ، مكتبة القاهرة ، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م .

(٧) ابن تيمية (أحمد بن عبدالحليم) : الإيمان: ٨٧ ـ الطبعة الثالثة ـ المكتب الاسلامي ، بيروت ١٣٩٩هـ .

(٨) السابق : ٨٢ .

(٩) ابن الأثير (ضياء الدين) : المثل السائر : ١ /٣٠٧ تحقيق أحمد الحوفي ، بدوي طبانة ، الطبعة الثانية ، دار الرفاعي ، الرياض ، ١٤٠٣هـ .

(١٠) رومان ياكبسون : قضايا الشعرية : ١٩ ترجمة محمد الولي ومبارك حنوز ، دار توبقال ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٨م .

وإذا كانت علاقة اللفظ بمسماه أمراً يصنعه الوجود اللغوي الحاضر في النص ، فما علاقة خبرتنا الذهنية بهذا الوجود ؟

إن هذه الخبرة هي إحدى إشعاعات هذه الطاقة التي يحملها اللفظ ، فمسمى «النار» وجود لغوي خلعه المسمي الأول على ناتج الإيقاد ، وبقي هذا الوجود يترامى إلى الذهن عند إطلاق ذلك اللفظ ، اعتماداً على السياق الذي يحدث بين المتكلم والمخاطب ، ولكن هل ذلك المدلول هو ناتج كل الدلالة التي تكتنز قدراً كبيراً من الانفعالات المقترنة بالاعجاب أو الخوف والحذر حين الإطلاق ؟

الإجابة قطعاً لا . ويبقى بعد ذلك في كل إطلاق للفظ «النار» دلالات كامنة يوجهها السياق الذي تستعمل فيه . فتكون : النار الحرب ، وتكون : السِمَة . فتصبح حينئذ إحالة اللفظ على الصورة الذهنية للشيء إحالة ناقصة لا تستكمل إلا بالبحث في السياق اللغوي الماثل أمامنا .

ولذا فإن الخبرة عما هو كائن في النص نفيد منها في الحدود التي تنهض باستشعار كوامن هذا اللفظ ، والامتداد بإشعاعاته في نسقه الجديد ، وأما التلقي الشعري للتشبيه فيتجلى من خلال وعينا بالكوامن التي تستحضرها هذه المسميات القائمة على طرفي العلاقة التشبيهية في نسقها الجديد حين نرنو إلى الشيء وقد مثل أمامنا بوجوده اللغوي وبتاريخه الجديد ، وبقدر تجدد هذا المثول يتعانق التلقي الشعري مع البدء الشعري الذي أحدث هذه المشابهة .

وإذا طغى استسلامنا لخبرتنا الذهنية بالشيء كنا أمام شعرية التشبيه كمن يعجب بالألعاب البهلوانية في الجمع والتفريق ، وينسى الجهد الشعري .

وليس الجامع المجرد من الطرفين الذي اجتهد البلاغيون في تلمسه قادراً على تقدير هذا الجهد ، والكشف عما يختبىء داخل هذه المشابهة من علاقات ، ذلك لأن هذا التجمع آل إلى عملية آلية ذهنية جامدة اختزلت علاقة الإنسان مع الأشياء ورؤيته لما يتم بينها من تناسق وانسجام في هذه المقايسة الآلية المبتسرة ، التي عفّت على إشعاعات اللغة ، ولم تفرق بين وجود الشيء في الخارج ، ووجوده اللغوي ، فأضحت المشابهة في النص الشعري هي المشابهة التي يمكن أن تتصور بين الشيئين على محض المقارنة ، فلو رأينا الرجل يشبه بالأسد

لسيطرت علينا فكرة الشجاعة ، ولو رأينا الرجل يشبه بالسيف لحضرت فكرة الفصل والمضاء والنفاذ ، ومن هنا يصبح المدخل إلى الشعر من غير بابه الذي هو الفعل اللغوي المانح للتعبير خصوصية تسير في فلكها الأشياء التي يحتضنها .

ولقد نحّت هذه النقلة القافزة من غير بابها الكثير من دلالات العناق التي أقيمت في عملية المشابهة . وأنستنا خصوصية الأسلوب الذي برزت فيه ، فأضحى ما يختلف به نص فيه طرفا تشبيه وجدا في نص آخر جملة أمور تدور في فلك ذلك النموذج الذي حُدِد لها ، كالتفصيل والتصرف الذي يحيل التشبيه من الابتذال إلى الغرابة[11] وإذا كان البحث العربي القديم اتجه ـ غالبه ـ إلى هذه الآلية في التشبيه ، فإن ذلك لا ينبغي أن يكون دلالة على الذائقة الشعرية نحو التشبيه ، بدليل الخروج الكثير المتنوع للشعراء عن هذه الآلية .[12]

وإدراك هذا الأمر غاية في الأهمية ، لأن إدخال التشبيه تحت مقولة الوضوح والمقاربة في التشبيه ، والتمايز بين الحدود ، أي الانتقال به من دائرة وجوده الشعري ، إلى ما وصفه به البلاغيون والنقاد ، يجعلنا نتحدث عن التشبيه إلى جانب الاستعارة وكأننا نتحدث عن طبقة أدنى من غيرها فنعلي من شأن الاستعارة على حساب التشبيه ، وهذا ما نجده لدى كثير من الدارسين المحدثين .[13]

وتزداد أهمية هذا الأمر حين نجد باحثا يعلل كثرة بروز التشبيه بأنه اتجاه نحو تزايد الوظيفة الإفهامية وتراجع الوظيفة الإنشائية بحيث (تكون طاقة الإرجاع

---

(١١) راجع القزويني (محمد بن عبدالرحمن الخطيب) : الايضاح : ٢٦٢ فما بعدها ، مطبعة محمد علي صبيح و أولاده ، مصر .

(١٢) أنظر لذلك مثلا لدى المبرد : السابق : ٢/ ٥٠ ، ٥١ ، والعسكري : السابق : ٢٦٣ ـ ٢٦٥ ، وابن رشيق (الحسن بن رشيق) : العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده : ١/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢ تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، الطبعة الرابعة ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٢ . وكذلك ما قيل حول بعض تشبيهات أبي تمام ، وأبي الطيب المتنبي في كل من الموازنة للآمدي ، والوساطة للقاضي الجرجاني .

(١٣) انظر لذلك مثلا لدى : أحمد عبدالسيد الصاوي : فن الاستعارة : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، فرع الاسكندرية ، ١٩٧٩م . وحمادي صمود : شعرية الشوقيات ، مجلة فصول : ٥٥ المجلد الثالث ، العدد الاول ، ١٩٨٢م ، وعبدالقادر الرباعي : الصورة الفنية في النقد الشعري : ٩٥ ـ ٩٧ الطبعة الاولى ، دار العلوم ، الرياض ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م .

في النص كبيرة ، بحيث لا يقوم حاجز بين اللغة وما تدل عليه)(١٤) بحسب رأي الدكتور/ حمادي صمود الذي يقول : (وغلبة التشبيه على الصورة ، وتأخر الاستعارة ، ثم بناء ماجاء بها على التصريح عميق الدلالة لا فقط على ارتباط «شوقي» بنهج القدماء في قول الشعر ، وإنما على ارتباطه بشيء أهم ، هو علاقة مستعمل اللغة باللغة ، فلئن كان التشبيه ظاهرة عامة في التجارب «الكلاسيكية» فإن التمسك بالتصريح والاحتراز من الاستعارة ، والاكتفاء بما لا يعطل الفهم ، أمر شديد الاتصال بمؤسسات الخطاب الأدبي في التراث العربي)(١٥) أي إن التشبيه عملية تراجع إلى النثرية .

وكلا التصورين «علو الاستعارة على التشبيه» و«كثرة التشبيه دلالة على النثرية» غير صحيح ، وذلك لأن كل تشكيل أسلوبي يستمد قوته من فاعليته وحركته داخل سياقه الذي وجد فيه ، ثم إن نظرة إجمالية إلى الشعر الجاهلي ترينا كثرة التشبيهات فيه ،(١٦) مع إن ذلك العصر مفعم بالشعرية في علاقة الإنسان بالأشياء والحيوان والأماكن على نحو واضح .(١٧)

وإذا أضفنا إلى ذلك اهتزاز التصور الذي يرى أن الاستعارة «تشبيه حذف أحد طرفيه» وذلك لما يتم داخل الاستعارة من جدة في الاستخدام اللغوي ، وإقامة علائق جديدة بين الأشياء ، وتجدد علاقة المبدع مع ما يقيمه في اللغة من أشياء يصعب تحليلها إلى علاقة المشابهة الآلية أو المنطقية(١٨) ـ كان ذلك مدعاة إلى النظر إلى التشبيه والاستعارة وغيرها من التشكيلات الأسلوبية في الشعر على أن كلاً منها نشاط لغوي يستغل طاقة اللغة في بناء العالم الشعري ، على نحو لا

---

(١٤) حمادي صمود : السابق : ٥٥ .

(١٥) حمادي صمود : السابق : ٥٥ .

(١٦) انظر عبدالقادر الرباعي : السابق : ١٠٨ .

(١٧) انظر : لطفي عبدالبديع : التركيب اللغوي للأدب ، ٢٧ ، ٢٨ الطبعة الاولى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م .

(١٨) انظر تفصيل ذلك وفلسفته لدى : لطفي عبدالبديع : السابق : الفصل الثاني ، وكذلك : مصطفى ناصف ، الصورة الادبية : الفصلين الثالث والرابع ، دار الاندلس ، الطبعة الثانية ، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م .

تنفك فيه العلاقات ، ولا تقبل التحليل إلى مطابقة مع العلاقات الخارجية لأطراف هذا العالم .

فالعلائق التي تقيمها المشابهة ليست دون العلائق التي تجلوها الاستعارة في إقامة عرى النص الشعري ، إذ إن هذه العلائق تقيم بين الأشياء نسقا وتجاورا ، وتحدث بينها التئاماً وتناسبا ، وإذا كان الفعل الشعري يسخر اللغة التي ينسق الإنسان من انتظامها بناء متفردًا لإحساسه وارتباطاته مع ما حوله ، فإن التأتي إلى شعرية التشبيه يأتي من هذا الباب ، باب التناسق والتماسك ، ومغالبة التنافر والتضاد .

ولقد كانت مغالبة البعد بين المتشابهات عند عبدالقاهر (أو العداء بينها كما يعبر) دليلاً على رؤية متميزة عن النظر إلى الشيء في وجوده المكاني ، حيث يقول : (ولم تأتلف هذه الأجناس المختلفة للمتمثل ، ولم تتصادف هذه الأشياء المتعادية على حكم المشبه ، إلا لأنه لم يراع ما يحصر العين ، ولكن ما يستحضر العقل ، ولم يعن بما تنال الرؤية ، بل بما تعلق الرؤية ، ولم ينظر إلى الأشياء من حيث توعى فتحويها الأمكنة ، بل من حيث تعيها القلوب الفطنة . .)(١٩)

فإذا كنا نجد في النسق التشبيهي مغالبة للتشتت والتمزق ، ومحاولة لإقامة تناسق عالم الإنسان في هذه اللغة التي تحكمها الروابط ، ويلم شعثها اكتناه الشبه ، فإن الدخول إلى شعريته من باب المخالفة هو استسلام لوجود الأشياء خارج الشعر ، إذ إن ذلك يوحي بنقل هيئتها الخارجية مع إغفال للجهد الشعري في إقامة التفاعل مابين هذين الشيئين اللذين أوقفنا التشبيه على علاقة بينهما غادرت التضاد إلى التناسب والتنافر إلى التلاؤم ، وذلك لأن إيجاد علاقة بين الأشياء التي لا علاقة بينها أمر له تقديره في الفعل الشعري ، لأن جوهر الفن عموما ـ كما يقول (مكليش ارشيبالد) ـ هو إيجاد تلك العلاقة ، ذلك لأن (الغبطة التي ينالها الإنسان من رؤيته للتماثل ـ كما يتراءى «لوردزورث» بحق ـ هي نشاط عقولنا وغذاؤها الرئيسي) .(٢٠)

(١٩) الجرجاني (عبدالقاهر) : السابق : ١/ ٢٧٧ .

(٢٠) عبدالقادر الرباعي : السابق : ٩٢ .

ويختلف مثل هذا النظر مع نظرة الدكتور / كمال أبو ديب الذي يقول : (إن المشابهة شعرية بقدر ما تسمح بخلق فجوة عميقة بين الأشياء في وجودها الجدلي ، أي في علاقات تشابهها وتضادها أو تمايزها ، وكلما اتسعت الفجوة . . . المكتشفة كلما كانت الصورة أعمق فيضا بالشعرية ، وأكثر ثراء بها ، أي كلما كانت إضاءة المشابهة للطبيعة المتمايزة للأشياء ، للتضاد القائم بينها كلما كانت أكثر إشراقا وبهرا)[٢١] .

ووجه الاختلاف معه أن عملية المشابهة تقاوم التنافر والتضاد ، وتقيم نسقًا جديدًا للعلاقة بين الشيئين ، فمن ثمّ لا تكون إضاءة للطبيعة المتمايزة للأشياء .

وإذا كان هذا الاختلاف يقف مع التناسق والتماسك الذي تقيمه المشابهة ، فليس معنى ذلك أنه يقف مع شعرية التشبيه ، إذا كان مسجلاً للمشاكلة الخارجية بين الشيئين ، لأن مثل ذلك لا يعدو أن يكون تسجيلاً لما هو كائن في الخارج ، وهو الأمر الذي يرفضه بالقدر الذي يرفض التضاد في التشبيه إذا كان كذلك ، ومن ثمّ لا يجعل التضاد فيه مناط الشعرية ، لأنه يتطلع إلى التماسك والتناسق الذي يقرِّب الفجوة بين المتباعدين ويغالب التضاد القائم بينهما ، في فعل شعري يلتحم فيه الطرفان ، ويُنْشيء بينهما علاقة تفاعلية تتجاوز تضادهما وتنافرهما .

- ٥ -

وإذا كانت ظاهرة التشبيه ، قد شاعت في الشعر الجاهلي ، فإن إعادة النظر في شعرية التشبيه ، تجعلنا ننظر إليه برؤية تستظل بثراء النص الشعري ، وترتوي بمائه الذي لا ينضب مقابل تلك النظرة التي سحقت النص ، وجعلت الإحساس طافيا على ظواهر الأشياء والمرئيات زاعمة أن الشاعر الجاهلي لا يتغلغل في خبايا النفس ولا يحلل عواطفه .[٢٢]

(٢١) كمال أبو ديب : في الشعرية : ٤٧ الطبعة الاولى ، مؤسسة الابحاث العربية ، بيروت ، ١٩٨٧م .
(٢٢) شوقي ضيف : العصر الجاهلي : ٢٢٠ دار المعارف بمصر ، الطبعة السابعة ، وقد ردد هذه المقولة باحثون آخرون منهم : سعد اسماعيل شلبي : الاصول الفنية للشعر الجاهلي : ٧٠ ، ٧١ ، مكتبة غريب ، مصر ، ومفيد قميحة : شرح المعلقات العشر : ٨٢ دار مكتبة الهلال ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

ووجه نقض هذا التصور بهذا المدخل إلى شعرية التشبيه يظهر بعدة أمور :

١) ما تمت الإشارة إليه سابقا من أن الجمع بين الشيئين هو الرحلة النفسية والذهنية التي يبحر الشاعر في أعماقها لإقامة علاقة بين الشيئين ، فوجه الصورة الماثل أمامنا إنما تم بمغالبة المخالفة بين الشيئين وإحداث النسق الجديد بينها ، وهذا أمر التفت إليه القدماء ، حين جعلوا وجه الشبه عقلياً - إلا إن ذلك آل إلى علاقة منطقية آلية - يقول السكاكي : (وهنا نقطة لابد من التنبيه لها وهي أن التحقيق في وجه الشبه يأبى أن يكون غير عقلي . . . فيلزم أن يكون أمراً كليا مأخوذاً من المثلين بتجريدهما عن التعين) .(٢٣)

فالحضور الحسي الظاهر الذي يستدعيه التذكير بالشيئين يذيب ما بينهما في الوجود الخارجي على نحو تنصهر به علاقة جديدة بين الطرفين حين ندرك ما يقيم الالتحام بينها لأن (أخطر مافي نقد الشعر أن نظن أن الصورة ظل للعالم الخارجي ، فتظل عيوننا محدقة في المادة ، وما الصورة كذلك ، فهي تنبع من أرقى ملكات النفس الإنسانية وهي التصور ، والعلاقة بين المشبه والمشبه به ، وإن تبدى فيها الحس ، فهي في حقيقتها علاقة معنوية قد لبست لباساً حسياً)(٢٤) .

فلو نظرنا مثلا إلى قول بشر بن أبي خازم الأسدي :(٢٥)

لمَنَ الـديـارُ غَشِيتَهـا بـالأَنْعُم تبـدو معـالمُهـا كَلَـون الأَرْقَم
لَعِبت بها ريحُ الصَّبَـا فَتَنَكَّرَتْ إلا بقيـةُ نُـؤْيِـهـا المتـهـدم

لوجدنا أن اللغة الشعرية قد صهرت العلاقة بين طرفي التشبيه ، وأخذت هذه العلاقة تسري في لغة البيتين ، فـ(لون الأرقم) الذي شبهت به آثار المنازل

(٢٣) السكاكي (يوسف بن أبي بكر) : مفتاح العلوم : ١٤٣ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٢٤) نصرت عبدالرحمن : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي : ١٥ الطبعة الثانية ، مكتبة الاقصى ، عمان ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

(٢٥) بشر بن أبي خازم : الديوان : ١٧٧ ، ١٧٨ تحقيق عزة حسن ، مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي بسوريا ، الطبعة الاولى ، دمشق ، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م .

الدارسة ، حين ننظر إليه في ضوء الصورة الكلية في البيتين نجده ينسجم مع روح التنكر التي تحفل بها الصورة ، ومع روح الأسى التي تجللها ، فالشاعر يتساءل عن الديار بقوله «لمن» وكأنه في بداية وقوفه عليها يجسد لنا شعوره المتوجس من معرفتها حين رأى ما حلّ بها من تغير ، ذلك التغير الذي يبلغ مداه حين يتراءى له في «لون الأرقم» بما يحمله ذلك اللون من جمال في الشكل ، وخوف من الباطن ، حين تحضر في الذهن صورة «الأرقم» الذي قيل فيه : (إن تقتله ينقمَ وإن تتركه يلقم) ،[٢٦] فندرك حينئذ توجس الشاعر من هذا التغير الذي أحدثه الزمن في الديار ، فأصبحت معالمها لا تتمثل إلا في معالم كائن يخافه الإنسان ، ويتوقع منه الغدر والانتقام . وقد سرى ذلك التغير الذي أوحت به صورة التشبيه إلى البيت الثاني ، فأضحت الديار والآثار متحركة في نفسه حين يلمس منها «التنكر» حيث إن «ريح الصبا» لم تزلها وإنما أبقتها متنكرة .

٢) تفيؤ العلاقة بين الطرفين تحت ظلال المشبه به :

وذلك حين يطول المشبه به ، وتزداد صورته اتساعا ، حين يغادر الشاعر صورة المشبه إليها ، وكأنه يجد أن الصورة الأولى لا تمثل إلا من خلال الثانية ، مكتفيا بدلالتها العميقة ، عن عقد علاقات سطحية ، وعندما نتشبث بالعلاقة الآلية يجوز لنا أن نفسر ذلك بالاستطراد ، وماهو بالاستطراد ، لأن الاستطراد أمر إضافي ، وحين نقبل ذلك لا نعتد بالشاعر ، ولا نثق بالشعر ، ونأخذ من هذا الطرف ما يَعْقِد المشابهة ، ونعتبر الباقي لغواً وزيادة .

والاعتداد بالشعر يتطلب البحث في هذا العالم الماثل في الطرف الثاني من الصورة ، وعقد الانسجام بينه وبين الطرف الأول ، واستخدام ما تشي به هذه العلاقة دليلاً على الكوامن التي يثيرها هذا التشبيه ، متجاوزاً سطحية الحسية ، حين نجد تعمق عالم الطرف الأول في الطرف الثاني ، وجعل الثاني بأفعاله وعلاقاته المعقدة بما تشتمل عليه من انفعال وخوف ورغبة ورهبة بديلاً عن الطرف الأول ، الذي يتركه الشاعر بمجرد الدخول في الطرف الثاني . وذلك ما نجده ماثلاً في تشبيه الناقة التي تحمل على ظهرها الإنسان قاطعة المفاوز والقفار

(٢٦) ابن منظور (محمد بن مكرم) : لسان العرب : رقم ، طبعة دار المعارف ، مصر .

بثور الوحش أو حماره أو النعام . في ذلك التشبيه القصصي الطويل ، أو تشبيه الدمع حين يفارق المحبوبة بالسانية التي يتوقف أمامها الشاعر ، وفي ما شابه ذلك من هذا النمط .

ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى :(٢٧)

كـأنّ عَينَـيَّ في غـربـي مُقتَّلَـةٍ   من النواضِح ، تسقى جَنَّـةً ، سُحُقاً
تَمطُـو الرِّشـاء فتُجـري في ثِنـايَتِهـا   مـن المَحـالـة ثَقْبًـا رائـداً قَلِقـاً
لـهـا مَتـاعٌ وأعـوانٌ غَـدَون بـه   قِتبٌ وغَـرْبٌ إذا مـا أُفـرِغَ انْسَحقـا
وخلفَهـا سـائقٌ يحـدو إذا خَشِيَتْ   منـه اللحـاق تَمُـدُّ الصُّلبَ والعُنُقـا
وقَـابـلٌ يَتَـغنّـى كلمـا قَـدَرَت   عـلى العَـراقِي يَـداه قـائمـا وفَقـا
يُحِيـلُ في جَـدْولٍ تَحْبُـو ضَفـادِعُـهُ   حَبـوَ الجَواري تَـرى في مائـه نُطُقا
يَخْـرُجنَ مِن شَرَبـاتٍ مـاؤهـا طَحِـلٌ   على الجُذُوعِ يَخَفْن الغَمَّ والغَرَقَا

ففي الطرف الأول دموع العين التي فقدت الحبيب ، وفي الطرف الثاني صورة واسعة ممتدة نرى فيها صورة الماء الغزير الذي يأتي من البئر بالجهد والتعب ، مع التركيز على أدوات الساقية ، وعاملي السقيا ، وما يبثه الماء من حيوية ، فهل العلاقة التي تربط بين الطرفين حسية ؟

إن تأمل الصورة في ظلال تفاعل الطرفين ، يوحي لنا بأبعاد تستثيرها هذه المشابهة ، فنرى الدمع السلبي في الطرف قد آل إلى ماء يبث الحياة ، فكأن الدمع هو ولادة الحياة ، حين صار على هذا النحو من السقيا ، وكأن الإجهاد بالحزن قد آل إلى فعل فاعل للإنسان يستخرج به ما يقيم الحياة ، فكأن مفارقة الحبيبة والبكاء عليها إيذان بولادة حياة جديدة فيها هذه الصورة من الجهد والفعل الإنساني ، وحيوية الحياة .(٢٨)

(٢٧) زهير بن أبي سلمى : شعره ٦٦ ـ ٦٩ صنعة الاعلم الشنتمري ، تحقيق فخر الدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

(٢٨) انظر مثل ذلك لدى بشر بن أبي خازم : ديوانه ، ١٣ ، ١٤ .

ففي هذه المشابهة في ظلال هذه الصورة الممتدة في الطرف الثاني ، كان نظر الشاعر الجاهلي التحليلي والتركيبي : النظر إلى الحزن ، والنظر إلى الفعل الآتي ، وتركيب الولادة الجديدة منها في هذه الصورة ، التي كنا نعفي على فاعليتها بالاستطراد ، ونطوي مافيها من عقلية تركيبية ، تحت رداء الحسية التي نعم بها الشعر الجاهلي حين تحجبنا الظواهر السطحية والمشابهات الآلية .

٣) البعد بين الطرفين :

كانت ذائقة النقد العربي ـ في مجملها ـ تفضل المقاربة في التشبيه ، كما يظهر في قول المبرد (وأحسن الشعر ماقارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه فيه لفطنته على ما يخفى على غيره ، وساقه برصف قوي ، واختصار قريب) ،[٢٩] ، ولذلك جعل المرزوقي تلك المقاربة من أبواب عمود الشعر ، وجعل لها عيارا هو (الفطنة وحسن التقدير ، فأصدقه (أي التشبيه) مالا ينتقض عند العكس ، وأحسنه ما أوقع بين شيئين اشتراكها في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة ، إلا أن يكون المطلوب من التشبيه أشهر صفات المشبه به ، وأملكها له ، لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والالتباس) .[٣٠] ولو جرى الشعر الجاهلي على هذا المنوال ، لأمكن تصديق الحسية المزعومة إذا كنا لا نريد التوغل داخل الصورة ، لكن الكثير منه يبحر في مسافة شاسعة بين المشبه والمشبه به ، مما يجعل المتأمل ينكر تلك الحسية المزعومة ، حين يجد مثلاً أن الجامع بين سنام الناقة وارتفاع القبر يستثير من الكوامن مالا يفي به مطلب الحسية ، على نحو من قول بشر بن أبي خازم الأسدي :[٣١]

(٢٩) المبرد : السابق ١ / ١٧٣ .

(٣٠) المرزوقي (أحمد بن محمد بن الحسن) : ١ / ٩ نشر أحمد أمين ، عبدالسلام هارون ، الطبعة الثانية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .

(٣١) بشر بن أبي خازم : ديوانه : ٥٠ .

أعــان سَرَاتَــه وبنــى عليــه بمـا خَلَطَ السوادِيُّ الـرَضِيـحُ
سنـامًا يـرفـعُ الأحـلاسَ عنـه إلى سَنَـدٍ كمـا ارتقَـدَ الضَّريـحُ

فما الذي يدعو إلى اختيار صورة ارتفاع القبر ليشبه بها ارتفاع السنام ؟ ، وهل يحق لنا أن نتناسى الموت الذي تستحضره صورة البعير لنكتفي بالمشابهة الشكلية ؟

إن هذا التشبيه يوحي بما تحته من خوف ورهبة وحذر ، لقد جاء ـ فيما يبدو لي ـ نتيجة لدخول الناقة بقوتها وحركتها في عالم الصمت المريع الذي يتوخى له ولها النجاء فيه ، بالقدر الذي يحذر الضياع والهلاك في أوديته السحيقة وصحرائه المقفرة .

ولقد وقف الدكتور / أنور عليان أبو سويلم أمام بعض التشبيهات ، التي تشبه ضلوع الناقة بتابوت الموتى ، أو بألواح الأران فقال : (إن معاني الموت تقترن اقترانا واضحاً بضلوع الناقة وبجرمها ، وليس في هذه التشبيهات ما يفيد معنى قوة الناقة أو صلابتها ، وإنما هي تعبير دقيق عن مصير الرحلة المحفوف بالمخاطر ، فقد تكوس بالشاعر ناقته التي أعدها لقهر الصحراء ، وعندها تتحول وسيلة النجاء والأمل في الحياة إلى كفن للموت في حر الظهيرة) .[٣٢]

وبذا نجد أن تحليل العواطف ، والخوف من المجهول ، كان منبع هذه العلاقة ، وليست العلاقة السطحية في المشابهة الحسية ، التي لو بحثنا عنها فلن نجدها ، وذلك لأن الشاعر يقيم بالكلمات وبالصورة عالمه المنسوج من علاقاته المعقدة بهذا العالم ، فيحيل المفارقات إلى متماسكات ، ويجعل مما يحذر تعاويذ لما يطلب منه النجاء والحياة .

(٣٢) أنور عليان أبو سويلم : الإبل في الشعر الجاهلي ١ / ١٠٤ ، ١٠٥ ، دار العلوم ، الرياض ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

وعلى هذا النحو من النظر إلى شعرية التشبيه حاولنا دفع هذه المقولة عن الشعر الجاهلي بهذا الطريق ، مع الأخذ في الحسبان أنـه بالامكـان دفعها باعتبارات أخرى .

* * *